# حرية الفكر

## واثرها فى تكوين الحضارة الانسانية

## على أساس الدين (١)

يخيل الى كثير من الباحثين أن حرية الفكر قالب جديد صب فيه الفكر بعدأن تخلص من قيود اللاهوت التي ظلت مؤثرة فى كل ماحاول الفكر أن يبرز من آثار فى العصور الوسطى وحدود العصر الحديث ، ويخيل اليهم أيضا أن أحرار الفكر لم يوجدوا فى عصر من العصور ، أللهم إلا فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وهذه العقود الثلاثة التى فرطت من القرن العشرين . على أن غالب مايكون الحق مع الذين يذهبون عكس هذا المذهب ويؤيدون فكرة أن حرية الفكر وجدت فى كل الازمان وأنها قالب صب فيه الفكر مرات عديدة خلال التاريخ البشرى .

وليست حرية الفكر قاصرة على استكشاف الفكرات الجديدة فى العلم أو الفلسفة أو الادب بل هى طابع الاديان فى كل العصور والتكأة التى استند اليها كل المصلحين فى كل بقاع الارض وخلال كل دور من دورات الحضارة . غير أنه بين حرية الفكر فى الازمان القديمة والحديثة فارق واحد . هو أن هذه الحرية فى العصور الاولى تمتع بها فرد واحد تبعته الجماهير ، أما فى العصر الحديث فاصبحت الحرية الفردية طابع الاكثرية من المتعلمين . فانقلبت الصورة مع ثبات فى الجوهر . فالشخصية الفردية فى الحضارات القديمة قد تبدلت فى الحضارات الجديدة بلفيف من الاحرار يرفعون علم التقدم أمام الجماهير تتبعهم اتباعا أعمى . بعد أن كانت تتبع فردا واحداً اتباعا أشد عماية فى العصور الاولى

خذ مثلا على ذلك الحوادث الكبرى التى يرويها التاريخ فى نشأة الحضارة . فانى اعتقد أن خروج خليل الله ابراهيم من أور الكلدان حادث من أكبر الحوادث التى وقعت فى تاريخ الانسانية . على أن خروجه من ذلك البلاد ومهاجرته مع أهله غرباً

---

(١) مقال لمحرر العصور نشر بالعدد الممتاز من مجلة الحديث التى تصدر فى حلب وهى من المجلات الممتازة بنزعتها الى التجديد ويحررها الاستاذ سامى الكيالى

الى أرض كنعان أن كان حادثاً بسيطا فى حد ذاته فانك اذا بحثت فى سببه الحقيقى رأيت كيف يدل التاريخ على أهمية الحوادث البسيطة . وليس لخروج ابراهيم عندى من معنى إلا الصراع بين فكرة التوحيد وفكرة التكثير . فانك اذا قرأت تاريخ خليل الله منذ نزوحه من « أور » الى موته لاتجد فى ذلك أثراً من فكرة « بعل » ولا « عشتار » ولا أرض « حارس » البابلية . بل تجد فكرة فى التوحيد ثبتت أصولها فى صميم الفكر الانسانى منذ ذلك الحين الى الآن من غير أن ينتابها تغير أو يعتريها انشعاب . اللهم إلا فى الصور العديدة التى أخرجها أهل الكلام فى اليهودية والنصرانية والاسلام

والسبب فى ذلك واضح . فان الاديان ليست مبتكرات صرفة تخرج من عقول الذين يأتون بها فتكون كالصور السحرية التى يقال بانها تظهر فجأة ولا يكون لها أصل ترجع اليه فى عالم الوجود الخارجى . ليست الاديان من هذا فى شىء . أنها دعوة قدسية تؤيد مبادىء تكون قد وجدت بالفعل وتشبع بها جو الفكر الانسانى . لهذا تختلف فى الصورة وتظل ثابتة فى الجوهر

***

نعود الى هبوط الاسباط مصر وخروج يوسف الصديق من بينهم زعيما سياسياً كبيراً وقائدا اجتماعيا انصرف الى الدنيا تحت لباس النبوات التى أخضع بها ملك الهكسوس الذى ظهر هو فى زمانه ، واستطاع بذلك أن يطيل حرب الاستقلال المصرية فى ذلك الحين ، وكانت قد قامت سجالا بين ملوك الهكسوس الذين بسطوا سلطانهم على شمال مصر من عنق الدلتا الى البحر الابيض المتوسط وبين أمراء مصر فى صعيدها وكانوا تابعين لغزاتهم بالاتاوة والجزية أكثر من ثمانين عاما طوالا . بل استطاع بذلك أن يخدم عشيرته من أبناء ابراهيم وينزلهم أرض « جاهان » الخصيبة فى مصر مابين بلدة « بلبيس » الحالية ومدينة « الاسماعيلية » الحديثة حتى تكاثروا فيها وامتد سلطانهم واعتز جانبهم . وهو فى كل هذا خارج على تعاليم ابراهيم جدهم الاكبر الذى أنزلهم الارض التي وعدوا بها أرض كنعان وسدوم ، وهو فى كل هذا قد تحرر من تقاليد عشيرته التى كانت تنطوي على الانصراف الى الله دون غيره من زخارف هذه الدنيا فملك وحكم وتحكم وأوصى بوصايا كلها لخير أهل الدنيا دون غيرهم من أهل الآخرة وهو أن استخفى فى كل ذلك وراء وصايا ابراهيم إلا أن كل أعماله كانت على عكس

الروح التى اراد ابراهيم أن يبثها فى عشيرته ، وعلى الضد من الخطة التى سار عليها فى حياته . بل لماذا نذهب الى ابراهيم ؟ فان يعقوب نفسه ( اسرائيل ) كان من أكبر المحافظين على تقاليد ابراهيم التى كسرها يوسف وبددها فى خلال حياته تبديداً . فانه أخرج قبيلة العبرانيين من جماعة جل همها الانصراف الى الله وتوحيده ، الى جماعة عالمية مستعمرة من طريق الاحتفاظ « بالسلام الاجتماعى » بعد ان حانت له فرصة الزعامة فى أرض الفراعنة . ولاجرم أن فى هذا من حرية الفكر - ومعناها التحرر من التقاليد الموضوعة - أثراً كبيراً وأنه كان فى كل أدواره متمشيا مع الحاجات الاولية التى تشعر الجماعات بضرورتها لها دون مجابهة الافكار الخيالية التى انطوت على كثير من الدعاوى التى قامت عليها حركة العبرانيين (١)

وكذلك تجد الحال اذا انتقلت « الى موسى » فانه أخرج العبرانيين من شعب مستعمر أساس استعباره السلام الى شعب فاتح بقوة الساعد والسلاح . فان خروجه من أرض مصر لم يكن إلا ثورة قادها موسى خير قيادة ضد الملك الفرعونى بعد أن طرد الهكسوس من مصر ، وبعد أن مات يوسف الصديق - لاندرى بمقدار كم من السنين - ولم يخلفه سياسى آخر يستطيع أن يحتفظ بالبناء الذى شيده يوسف لملوك الهكسوس الذين لايبعد أن يكون لهم بالعبرانيين صلة السلالة ، وان كانت الحقيقة أن بين الهكسوس والعبرانيين صلة الموطن . فهم على الاقل أسيويون من غرب آسيا

كذلك اعتقد أن سنى التيه فى سيناء لم تكن إلا حيلة لجأ اليها موسى ليدرب الشعب العبرانى على أن يكون شعبا حربياً يتحمل المشاق والمتاعب . بل أراد بذلك ان يخرج من أولاد العبرانيين سلالة صحراوية جديدة فعكف على سنن أهل البداوة ليفوز منهم بجيل حربى جديد . ولايعوزنا الدليل على ذلك فان تاريخ موسى كما يرويه ربانيو « التلمود » مفعم بالادلة التى تؤيد مذهبنا هذا .

فغير خاف مثلا أن موسى بعد أن قتل المصرى الذى كان يناوىء العبرانى ، هرب من أرض مصر مجتازاً شبه جزيرة سيناء ، حيث قطعها من الغرب الى الشرق ، ثم هبط أرض مدين ولبث بها سنين عديدة ، تزوج فى أثنائها من بنت « شعيب » وظل طوال هذه السنين يرعى الاغنام ويتنقل بها من مكان الى مكان فى تلك البرارى

(١) راجع مقالنا « مطالعات فى سفر التكوين » الذى نشر فى العصور

المتسعة المترامية الأطراف . هذه حقيقة أولى لا يجب أن تغيب عن أذهاننا .

ثم يجب أن نتذكر بجانب هذا أن شعب العبرانيين ، منذ هبوط الاسباط أرض مصر ، قد عاش فى كنف يوسف و فى أرض « جاهان » الخصيبة عيشة كلها لذة وترف وسعادة وانصراف عن العادات العمرانية الأولى التى عكف عليها أجدادهم . ثم لنضف الى ذلك أنهم أقاموا فى مصر أربعة أجيال على الاقل ثلاثة فى حياة يوسف ، وجيل بعد موته حتى ظهور موسى . هذا على أعدل تقدير . ولا جرم أن أربعة أجيال يعيشها شعب فى دعة وحرية وأرض خصيبة تؤتيه أكلها من غير نصب ، وتعطيه مرعى لمواشيه من غير تعب ، كافية لأن تقتل فى نفس شعب جوال كالعبرانيين . فضيلة القدرة على الجهاد منذ أول أيام تاريخه ، وكل نزعة الى حب الحرب والجلاد . إذن فقد دخل العبرانيون أرض مصر قبيلة صحراوية جوالة فيها الكثير من صفات أهل البداوة ، وخرجوا منها شعباً ناعماً هادئاً فيه كل صفات أهل الاودية الزراعية . وهذه حقيقة ثانية لا يجب أيضاً أن تغيب عن أذهاننا .

ماذا نستنتج من هاتين الحقيقتين ؟ نستنتج منهما أن موسى كان عليما بجغرافية سيناء وأرض مدين معرفة صحيحة ، وان العبرانيين قل من كان يعرف منهم شيئاً عن جغرافية هذه البقاع ، ان لم يكونوا جميعا على جهل بها . لهذا استطاع موسى أن يغيبهم فى جوف التيه سنين عديدة ، حتى يفنى الجيل الناعم الوادع الذى خرج به من أرض مصر ، والذى أثرت فيه طبيعة الوادى الزراعى اخلاقيا واستعماريا ، ويخرج من جيله جيلا فيه كل صفات أهل البداوة وشجاعة سكان الاراضى الجبلية . يدلك على هذا الثورات الكثيرة التى شنها العبرانيون ضد موسى وطلبهم منه أن يعود بهم الى مصر ليعيشوا فيها عبيدا لفرعون على أن يكونوا شعب الله المختار ، وعلى أن يتلقوا توراة الله من كليم الله . بل إنهم رجموه مراراً عديدة ولم يستنكفوا أن يظلوا على رجمه عاكفين ، حتى بعد أن يهبط آله اسرائيل فى غمامة ويظلل موسى منعا لاذاهم عنه ، فلا يتورعون ، عن أن يرجموا موسى ومن فوقه الغمامة والله فيها ! ! ! كل هذا حبا فى عبودية فرعون وزهدا فى حرية موسى

كل هذا ولا يرجع موسى عن أن يتركهم فى التيه يموت منهم العاجزون ويبقى الصالحون . فكرة انتخابية طبيعية طبقها موسى على شعب اسرائيل جهد ما يستطيع مؤمن بنتائجها فى إخراج أجيال الحرب والجلاد . وعلى نفس الطريقة جرى أهل اسبارطة فى عصور المدنية اليونانية .

من وراء أى ستار يخفى موسى مقاصده ؟ يخفيها وراء ستار التوراة . إن الله يريد أن يعلم شعبه المختار أسرار التوراة . وأين ؟ فى التيه ! ولا خروج لهم من هذا التيه الموسوى إلا بان يتعلموا التوراة ويستوعبوها . ومن ذا الذى يحكم بانهم استوعبوها ؟ موسى وحده . وكم من السنين تكفى لاستيعابهم التوراة ؟ أربعون سنة فقط ! وهى حقبة من الزمن كافية لان يغربل فيها شعب اسرائيل وتنسفه مناسف الزمان القاسية،فلا يبقى منه إلا الشعب الجبلى المستولد فى برية سيناء وحده . الشعب البدوى الصابر المصابر الذى يتحمل مكاره الجوع والعطش والذى يشعر بأنه جدير بأن يدافع عن نفسه بيده ، ويذود عن حياضه بسلاحه

ولا خفاء فى أن تاريخ موسى يدل على أنه كان جباراً قوى الاصلاب . وأى زعيم يصبر على تخنث شعب اسرائيل وتأنثه إلا موسى؟ ومن ذا الذى يصبر على ميوعة تلك الفطرة التى يصفها سفر الخروج أحسن وصف إلا موسى ؟

ولقد نفذ موسى سياسته أحسن تنفيذ ، وأخرجها من حيز الفكر الى حيز الوجود أحسن إخراج . فأخذ شعب اسرائيل من مصر عبيداً ، وتركهم بعد فتحهم أرض الميعاد شعبا حربيا قويا ينتظر امبراطورية « داود » ليتسلط بها على الشرق حقبة من الزمان .

كل هذا يختفى وراء الايمان واليقين بصحة الرسالة التي اعتقد موسى أنه واجب عليه فى الحياة أن يؤديها لأهل جيله ، وللأجيال الآتية من بعده . وان فى جماع هذا لأثرا من حرية الفكر ، احتمل فى سبيله موسى من المكاره ما لم يحتمل حر من أحرار الفكر جزء على ألف منه خلال كل الأجيال التى وصل الينا تاريخها .

على ان فى هذه الصورة لاقتضابا لا يحتمل المقام أوسع منه . ولو رجعت الى أسفار التوراة ، أو التلمود إذن لرأيت كيف أهين موسى وكيف استهزىء به وكيف نبذ ورجم بالطوب والحجارة ، وكيف تدلل عليه شعب اسرائيل تدلل النساء والمخنثين . ولكنك ترى بجانب ذلك كيف صبر موسى وكيف صابر ، وكيف انتصر على أهله ، فاخرجهم من ظلمات الجهل والعبودية ، الى فىء الحرية والعلم. ترى كيف أشربهم روح التوراة بوصاياها المجيدة ، وكيف هيأ منهم شعبا فاتحا . حتى أنك لو نظرت فى تاريخ الجلاد بين موسى وبين شعبه ، لتساءلت كيف يختار الله هذا الشعب ليكون شعبه ، وكيف يمكن أن يخرج من هذا الخليط المؤنث شعبا لا يبقى فى الوجود من شىء إلا هو والله ، كما ينص التلمود ؟

غير أنه لم يكن لموسى من بد أن يخفى مقاصده وراء ثوب القداسة ، وان يستدر التوراة من السماء ، وان يكلم الله. فشعب اسرائيل ذو ميول دينية من ناحية ، وكثرة مطالبه ورخاوته وتأثه من جهة أخرى ، لم يكن لها من علاج الا ان يكلم الله موسى ، وأن يكلم موسى الله ، ليرضى شعب اسرائيل نزعته الدينية ، ويشعر كما يشعر النساء بأنه فى كنف العزيز الحميد ، يستظل بحمايته فى تيه سيناء، فكيف عن إيذاء موسى

* * *

على هذا تجد الحال إذا أنت انتقلت من اليهودية الى النصرانية . فان روح اليهودية قد صبت على ما اعتقد فى مزامير داود . روح تجلت فى خوف الله خوفا شديداً واسترضاء لجبروته العظيم . مضى داود فى مزاميره يتقرب من الله مصطبغا بهذه الصبغة . فلما ظهر عيسى على أنه المسيح الذى ينتظره اليهود حتى اليوم تحت ظل البراق، وبشر بنظرية جديدة صب فيها روح النصرانية ، وقال بأن ملكوت السماوات يفتحه الحب لا الخوف ، كان بهذا صاحب مذهب جديد يحتاج الى كثير من حرية الفكر والى كثير من الشجاعة على ابدائه .

وكذلك إذا أنت رجعت الى الاسلام ، رأيت فيه مذهبا وسطا بين مذهب اليهودية والنصرانية ، وان روحه استمدت من الخوف الشديد والحب الصامت الرهيب . وعندى ان الآية المعروفة فى سورة الرعد : « ان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ، وان ربك لشديد العقاب » فيها تعبير صادق عن روح الاسلام . فهو مذهب منتخب من تقاليد العبرانيين منذ أبعد أزمانهم اخذ أبين صورتين فيها صورة المزامير وصورة الانجيل ، وأخرج دينا جديدا ، كان بحق دين الله ، الذى استطاع أن يخضع العالم المتمدين فى ثمانين عاما قصاراً من عمر الدنيا .

ولا جرم أن فى كل هذا قدراً كبيراً من حرية الفكر ، ان استخفت وراء مظاهر ما فوق العقل ، فان روح العصر كانت سببا فى ذلك . وان للفكر تقاليد ثابتة تحدث جواً خاصا ، لا يعيش فى الفكرات والمذاهب إلا ما انسجم فى ذلك الجو .

وان مجال البحث فى هذا لواسع كبير ، نتمنى لو تتاح لنا الفرص مرة بعد أخرى لنزاول جوانب منه ، تمشيا مع روح زماننا واستجابة لنداء الحرية الفكرية التى أصبحت طابع العصر الحديث على الاساليب العلمية التى افعمت جونا فى هذا الزمان .